جميع حقوق النشر محفوظة لجريدة الدستور 2020 ©

17/02/2007

رحل عن 96 عاما 18و ألف لوحة ...التشكيلي صلاح طاهر وتحوله من الكلاسيكية إلى التجريد

رحل عن 96 عاما 18و ألف لوحة ...التشكيلي صلاح طاهر وتحوله من الكلاسيكية إلى التجريد

فقدت الحركة التشكيلية والثقافية المصرية والعربية في يوم الثلاثاء 6 ـ 2 ـ 2007 الفنان صلاح طاهر ، أحد أعلام الجيل الثاني في الفن التشكيلي بمصر ، عن عمر يناهز 96 عاماً بعد رحلة طويلة مع المرض. ويعد طاهر من الفنانين الذين حملوا مشعل الإبداع بعد جيل الرواد مباشرة ، وأحد الذين تحولوا من الكلاسيكية الأكاديمية إلى التجريد في عصر لم يكن للتجريد جمهوره ، فثار على ما كان سائداً لمسايرة روح العصر ، ليضع في التجريد شخصيته وروحه وفكره وثقافته ، وليكون له بعد ذلك أسلوب متفرد. فمن هو صلاح طاهر وماذا عن تجربته؟ ولد صلاح طاهر في شارع الجنزوري في العباسية الشرقية بالقاهرة ، في 12 أيار سنة 1912 ، لأب مثقف يشتغل بالأعمال الحرة ، وكان يملك مكتبة كبيرة عامرة بكل أنواع الثقافات ، حيث كان يستغل أوقات فراغه في قراءة الشعر والأدب ، وتقديم النصح لابنه صلاح بأن يقرأ دواوين الشعر العربي القديم والكتب الدينية ، فحفظ في ذلك الوقت ـ كان عمره سبع سنوات ـ كتاب ابن المقفع ، ربما لأن والده كان يمنحه خمسة مليمات مقابل كل صفحة يحفظها ، وفي هذه السن سأله صديق والده ، ماذا تحب أن تكون في المستقبل؟ فأجابه ببراءة: "أريد أن أكون رساماً كبيراً مثل روفائيل".

هذا المخزون الثقافي أفاده كثيراً ، وخصوصاً أن شقيقه الأكبر منه بعشرين عاماً كان عاشقاً للموسيقى ، ويجيد العزف على البيانو الموجود في بيتهم ، وكان يحكي له حكايات عن عظماء الفنانين مثل (روفائيل ، ودافنشي) ، ويطلعه على رسوماتهم ، ويشتري له دفاتر الرسم والألوان ، بالإضافة إلى أنه كان يشجعه على تذوق الموسيقى.

أما أمه فقد تولت تربيته وتوجيهه منذ صغره ، لأنها كانت تتوسم فيه نبوغاً غير عادي ، وكانت تحرضه على تتبع المبدعين الشعبيين ، فمثلاً عندما كان يشتري لعبة "نحلة خشبية" لكي يلعب بها ، كانت تنصحه بمشاهدة صانع النحلة وهو يعدها ويخرطها وينحتها ، فكان يراقبه بدقة ، فنمت في جوارحه مشاعر إبداعية فكرية وموسيقية ، لأن أمه كانت تحب الموسيقى ، وتغني أيضاً ، وكان لها صالون سيدات تلتقي فيه صاحباتها يوماً في الأسبوع ، وتحضره عازفة عود تركية. كان عمر صلاح حينذاك أربع سنوات ، وأثناء حضوره الصالون تعلم العزف على الكمان ، ونشأ من صغره على حب الموسيقى. وأثناء وجوده بالمدرسة الحسينية الابتدائية اكتشف في نفسه عشقاً خاصاً للرياضة البدنية ، وولعاً بلا حدود للرسم ، حيث كانت لوحاته تعلق على جدران غرفة الصف وفي فناء المدرسة ، كما اكتشف نهمه للقراءة وبشكل خاص الأدب والمسرح العالمي.

في هذه المرحلة كان والده يصطحبه إلى القناطر الخيرية في كل يوم أحد ، كي يشاهد الأشجار المختلفة ، والأزهار والنباتات والمراكب الشراعية وبيوت الفلاحين. كل هذه المشاهدات ولّدت عنده ارتباطاً بالكون وجمالياته. وفي المرحلة الثانوية سار صلاح طاهر في ثلاث طرق ، هي: 1 ـ الرسم. 2 ـ القراءة: كان يقرأ يومياً حوالي ست ساعات ، وهكذا كانت الحياة الثقافية تأخذ منه وقتاً واهتماماً كبيرين ، حيث صار عنده مكتبة ضخمة تضم أكثر من 45 ألف كتاب ،

منها حوالي عشرة آلاف عن الفن ، وعلم النفس ، والاجتماع ، والعلوم الإنسانية ، والفلسفة ، وكان فيلسوفه المفضل هو"نيتشه ".

هذه النشأة الثقافية أعطته رؤية جديدة للحياة ، والفضل فيها يعود لوالده الذي غرس فيه حب القراءة والإطلاع منذ طفولته ، رغم انه كان تاجراً يهمه الكسب والخسارة ، وهذا ما جعل صلاح طاهر يكره التجارة ولا يمارسها ، خصوصاً بعدما قرأ للفيلسوف كارلايل أن "التاجر يعيش على حساب خسارة غيره". 3 ـ رياضة الملاكمة: والطريف أنه حصل على بطولة مصر في الملاكمة في الوزن الخفيف لمدة ثلاث سنوات متتالية بدءاً من السابعة عشرة من عمره.

في سن الشباب كانت تربطه بالمفكر الموسوعي عباس محمود العقاد علاقة وطيدة ، وكان من تلاميذه المخلصين ، بل إن العقاد كان بمثابة الأب الروحي بالنسبة له ، رغم فارق السن بينهما ، حيث كان سن العقاد (52) سنة ، وصلاح طاهر (19) سنة ، وكانا يتمشيان أحياناً في أحياء مصر الجديدة ، بعد الساعة الثامنة والنصف مساءً ، وتستمر رحلة المشي على الأقدام لمدة ساعتين تقريباً ، وكان يسأله عن آخر كتاب قرأه من أجل إثارة الحوار ومناقشة ما قرأه.

وعندما طغت القراءة على هواياته الأخرى قرر ترك الملاكمة ، رغم سجله الحافل بالبطولات المتعددة ، وهذا القرار أصابه بحالات من الصراع النفسي الشديد ، ولكن قراءاته لكتب تحليل النفس جعلته يجتاز هذه المشكلة النفسية في ذلك الوقت. وقد فسّر العقاد له ذلك بقوله: "إن الشباب في مطلع حياته يفتقر إلى النضج الكافي ، والنضوج يتم أولاً في القوة العضلية والجسدية ، ولكن عندما ينمو فكره وعقله ، يبدأ في مرحلة الاختيار الصحيح ".

بعد أن ترك الملاكمة توجه صلاح طاهر إلى اليوغا وفلسفتها ، وبقي يمارسها بكل أشكالها الجسدية والروحية حتى رحيله ، وخصوصاً التأمل في الحياة دون حركة لمدة عشر دقائق ، وكان يؤكد أن هذه الدقائق القليلة يومياً: "تخلق مني إنساناً آخر ، تمسح عن نفسي أي توتر ، تخلصني من القلق ، تتجدد نفسي ، وتكتسب راحة ، هي التي تمكنني من العودة إلى العمل بنشاط".

بعد أن أتم صلاح طاهر دراسته الثانوية التحق بمدرسة الفنون الجميلة العليا عام 1929 ، ودرس على أيدي الأساتذة الأوروبيين "بريغال" و"حمزة كار" ، ثم استكملها على يدي الفنان الرائد راغب عياد وأحمد صبري ويوسف كامل ، وكانت صلته بهؤلاء وثيقة وجيدة ، ويبدو أنهم اكتشفوا عشقه للفن والقراءة. على أيدي هؤلاء الأساتذة استوعب صلاح طاهر القيم الجمالية الكلاسيكية الغربية ، حيث تراوحت أعماله خلال تلك المرحلة كما يقول الناقد عز الدين نجيب بين كليهما: بين الأكاديمية الرصينة في رسم الوجوه ومناظر الريف ، والانطباعية التي تجد في الطبيعة والحركة مجالها الخصب وتهيم باللون والنور.

عقب تخرجه في مدرسة الفنون الجميلة العليا عام 1934 ، عمل مدرساً للرسم بعدة مدارس. خلال الفترة من عام 1943 ـ 1953 تولى مهمة الأستاذ المشرف على مرسم كلية الفنون الجميلة ، وهو يعتبر شكلا من أشكال التفرغ للإنتاج الفني في مصر. وقضى صلاح طاهر 10 سنوات متتالية في هذا العمل الذي وفر له فرصة نادرة للرسم في الهواء الطلق ، سواء كانت لمناظر طبيعية أو لآثار أو نماذج حية لوجوه شخصية.

في المرحلة الممتدة من 1953 ـ 1963 بدأ صلاح طاهر بالأسلوب الوصفي برسم لوحات تمثل المناظر الطبيعية والتجمعات الإنسانية في الريف والتكوينات المعمارية والأرابيسك بالذات ، باعتبارها تكوينات بنائية محكمة التركيب ،

وأعمالا تمجد العمل والبناء وتألق الإنسان المصري أثناء بناء السد العالي عام 1963 . بالإضافة إلى ذلك رسم ما يقربم من 400 لوحة للوجوه الشخصية (بورتريه) ، من بينها صور لأقطاب جيله ورواد الفكر أمثال الدكتور زكي مبارك ، أحمد شوقي ، د. طه حسين ، توفيق الحكيم ، خليل مطران ، مصطفى لطفي المنفلوطي ، والطهطاوي... وغيرهم. وقد تميزت لوحات هذه المرحلة بمميزات تعبيرية خاصة ، بالإضافة إلى المهارة والإتقان في تلك الأعمال التي كان يركز فيها على التشريح والتكوين. بالإضافة إلى ذلك ركز على استخدام الألوان الباردة في مواجهة الألوان الساخنة ومشتقاتهما ، ووضع الألوان الصريحة المنفردة بطريقة مضيئة في مواجهة الألوان الممتزجة المتداخلة الكابية ، وكانت هذه المرحلة التي جرب فيها الفنان عدة أساليب حديثة ، بمثابة فترة التكوين الضرورية للفنان.

تلك التجارب لم يتوصل من خلالها إلى التعبير الفني المستقل الذي كان ينشده ، ولكن هذه التجارب أفادته كثيراً ، فهو يعترف أنه تعلم البناء ، وهندسة اللوحة ، وتماسك الشكل ، والتكوين ، المحكم في العمل الفني خلال تلك المرحلة.

عام 1956 سافر صلاح طاهر إلى الولايات المتحدة الأمريكية لمدة ثلاثة أشهر ، وهناك كما يقول الناقد صبحي الشاروني شاهد طغيان الاتجاه اللاتشخيصي إلى درجة الشطط والغرابة والتطرف ، وكان أثر هذه الرحلة على الفنان ردا عنيفا ضد التجريدية لمجرد التجريد. وبعد عودته إلى مصر هاجم التجريدية بعنف في جلساته ومناقشاته ، وأقسم أمام عدد من الفنانين بأن يفعل مثلهم ، وقال بأسلوب التحدي: "ما حكاية هؤلاء التجريديين؟ أيحسبون أنهم يفعلون شيئاً خارقاً؟ إنني أستطيع أن أتفوق عليهم". وهكذا كانت هذه الرحلة نقطة التحول في فن صلاح طاهر ، ولم يكن هذا التحول تدريجياً وإنما جاء بشكل مفاجئ حتى بالنسبة لمتابعيه ، وعلى حد قول الناقد د. نعيم عطية: فإن "صلاح طاهر هو أجرأ فنان في مصر ، وهذه الجرأة ليس لها مبرر سوى إقدام صلاح طاهر على التجريد في عصر لم يكن للتجريد جمهوره ـ بين الجمهور التشكيلي ـ ومثل ذلك سقطة عنيفة ـ وفي نظر البعض ـ لفنان أكاديمي كانوا يعجبون بفنه". ولعل هذه السقطة تعبر عنها جبراً مقولة العقاد الذي كان من المعجبين بفن صلاح طاهر حين سئل عن صلاح طاهر بعد دخوله مرحلة التجريد ، فأجاب: "إن قلعة ضخمة من قلاع الفن قد هوت ومرجع هذه المقولة هو الفنان نفسه".

إلى هذا الحد كانت خيبة أمل معجبي صلاح طاهر وفنه ، ولذلك فإن إقدام طاهر على التجريد وقتها كان فعلاً جرأة ، ولكن هناك عدة عوامل يمكن اعتبارها السبب الفعال في التحول إلى التجريد ، وعلى رأسها تغير الجمهور الذي يقبل على مشاهدة أعمال الفنان ، هذا بالإضافة إلى عدم اقتناعه بما ينتجه الفنانون في أمريكا. وهناك عامل ثالث هو تحقيق شخصيته المستقلة التي لم يسبقه إليها أحد ، وظل يبحث عنها أربع سنوات كاملة بعد ممارسة التجريدية ، قدم خلالها أعمال مستوحاة من العوالم الكونية وخاصة عالم الفضاء وعالم البحار ، وبعضها مستوحى من مناخ العصر الصناعي وعوالم البناء والإنشاء بالإضافة إلى البساتين والبراكين والصخور.

هذه المجموعة نفذت من خلال تكوينات لونية (الزيتية والمائية والغواش والأكريليك) ، وقدمت تحت اسم تكوينات تجريدية تعبيرية. وتميزت لوحات هذه المرحلة بمحاولة الابتعاد عن أي دلالة تشخيصية ، والاقتصار على اللون الأسود والأبيض مع لون آخر بنسبة ضئيلة جداً في اللوحة ، والسبب في ذلك كي يتمكن الفنان من التصميم نفسه ، وجاء تنقله بين الخامات والأصباغ المختلفة ليحقق لمساره الفني ، الحيوية والتطور الدائمين. وقد انتهى الفنان من هذه

المرحلة إلى مرحلة أخرى استمرت حتى رحيله ، وهكذا سار تفكير الفنان ، وهو يؤكد هذا المعنى في قوله: "كان عام 1960 هو عام الرسوخ والعثور على نفسي تماماً".

من هذا المنطلق بدأ صلاح طاهر يشعر بكيانه المتكامل بعد أن وجد نفسه تماماً ، وأصبح له أسلوبه المتميز في لوحاته التي تحمل اسمه وتدل على شخصيته دون توقيعه عليها ، وفي رأيه كما يقول: "هذا هو معنى الأسلوب". واستطاع صلاح طاهر منذ بدأ بالتجريد أن يكسر كل القيود التي أحاطت بأنامله وأحاطت أكثر بتفكيره ، وبدأت معالم ذاتيته الفنية في السنوات التالية تتضح أكثر وتكتسب ملامحها المتميزة حتى وصلت في قمة نضجها إلى أداء أقرب ما يكون إلى الأداء الموسيقي ، فكل لوحة رسمها عبارة عن سيمفونية يؤلفها من الخط واللون والكتل والفراغات ، حيث يمتزج الشكل بالمضمون في وحدة لا انفصام بينهما.

أخيراً برحيل الفنان صلاح طاهر ، فقدت الحركة التشكيلية العربية أحد أبرز فرسانها الذين ساهموا في القرن الماضي بإرساء دعائم الفن التشكيلي في مصر ، تاركا خلفه أكثر من 18 ألف لوحة منها لوحة "الأعجوبة" التي قدر سعرها عام 1993 بمليون دولار.

جميع حقوق النشر محفوظة لجريدة الدستور 2020 ©